

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، أما بعد .

إن الخلاف سنة الله في الأرض ، و الخلاف بين أهل السنة والجماعة وبقية المذاهب كان في مسائل كثيرة وترتب عليه أقوال والكل يرى أن قوله هو الصحيح ومما لا شك فيه أن القول الصحيح هو قول أهل السنة ، ومن المسائل التي وقع فيها الخلاف مسألة (كلام الله) وسوف يكون بحثي حول تلك المسألة من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : تعريف الكلام في اللغة .

المبحث الثاني : تعريف الكلام في الاصطلاح .

المبحث الثالث : تعريف أهل السنة للكلام

المبحث الرابع : أنواع الكلام

المبحث الخامس : أهم الأقوال في من المتكلم .

المبحث السادس : مذاهب الناس إجمالاً في صفة الكلام .

المبحث السابع : بيان مذهب المعتزلة تفصيلاً .

المبحث الثامن : شبهات المعتزلة التي يحتجون بها .

وأما بقية الحديث في هذه الصفة فسيكون من خلال تقارير الأخوة الزملاء ، سائلاً الله العون السداد .

المبحث الأول : تعريف الكلام في اللغة .

قال في لسان العرب : كلم :^١

كلم القرآن كلام الله و كلم الله و كلماته و كلمته و كلام الله لا يجد ولا يعد وهو غير مخلوق تعالى الله عما يقول المفترون علواً كبيراً .

قال سيبويه: أعلم أن قلت إنما وقعت في الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاماً لا قولاً ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله ولا يقولوا القرآن قول الله .
وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه فعبّر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة قال أبو الحسن ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر ومما يدل على أن الكلام هو الجمل المتركة في الحقيقة قول كثير لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعا وسجوداً فمعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجي ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع وإنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه لعذوبة مستمعه ورقة حواشيه .

وقال في مختار الصحاح :^٢

الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير و الكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق وفيها ثلاث لغات كلمة وكلمة وكلمة و الكلمة أيضا القصيدة بطولها و الكليم الذي يكلمك و كلمه تكليماً و كلاماً مثل كذبه تكذيباً وكذباً و تكلم كلمة وبكلمة و كالمه جاوبه و تكالما بعد التهاجر و كانا متهاجرين فأصبحا يتكلمان لا تقل يتكلمان وما أجد متكلماً بفتح اللام أي موضع كلام و الكلماني المنطبق و الكلم الجراحة والجمع كلوم و كلام وقد كلمه من باب ضرب ومنه قراءة من قرأ (دابة من الأرض تكلمهم) أي تجرحهم وتسمهم و التكليم التجريح وعيسى عليه السلام كلمة الله لأنه لما انتقع به في الدين كما انتقع بكلامه سمي به كما يقال فلان سيف الله وأسد الله .

وقال ابن فارس :^٣ « الكاف واللام والميم أصلان ، أحدهما يدل على نطق مفهوم ، والآخر على جراح .

وقال شيخ الإسلام : ولفظ الحرف والكلمة له في لغة العرب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بها معنى وله في اصطلاح النحاة معنى فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة ، الجملة الأسمية أو الفعلية .

ولا يوجد قط في الكتاب والسنة كلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون أن اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب .^٤

١ / لسان العرب - بين منظور - المجلد ١٢ - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى ص ٥٢٢
٢ / مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازي - تحقيق محمود خاطر - المجلد ١ - مكتبة لبنان - بيروت - ص ٢٤٠
٣ / معجم مقاييس اللغة / ابن فارس / المجلد الخامس / ص ١٣١٢
٤ / الفتاوى م ١٢ - ص ١٠٣

المبحث الثاني : تعريف الكلام في الاصطلاح .

الأقوال في مسمى الكلام أربعة وهي :

القول الأول : أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً ، كما يتناول لفظ الإنسان للروح والبدن جميعاً وهو الذي عليه السلف والفقهاء والجمهور .

القول الثاني : بل مسماه هو اللفظ ، والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السنة ، وهو قول النحاة ، لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ .

القول الثالث : بل مسماه هو المعنى ، وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز ، لأنه دال عليه ، وهذه قول ابن كلاب ومن اتبعه .

القول الرابع : بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول الأشاعرة .⁵

ومما لا شك فيه أن القول الصحيح هو القول الأول وعليه المبحث التالي.

المبحث الثالث : تعريف أهل السنة للكلام :

أما أهل السنة فعرفوا الكلام بأنه مجموع أصوات وحروف تنبئ عن مقصود المتكلم وهذا يعني أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعاً .

وهذا المعنى للكلام هو المأثور عن أئمة أهل السنة وهم قول الجمهور من جميع الطوائف كما هو المستعمل في اللغة فإنه المتبادر إلى الذهن عند إطلاقه .

قال بن تيمية رحمه الله⁶ في قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله يحدث من أمره ما شاء وأن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة) اتفق العلماء على أنه إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دينية وطلب لا يبطل الصلاة وإنما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على أن حديث النفس ليس بكلام . انتهى كلامه رحمه الله .

والكلام إذا أطلق فإنه ينصرف إلى العبارات المسموعة بالحقيقة .

المبحث الرابع : أنواع الكلام :

الكلام كما يقول البلاغيون : إما خبر وإما إنشاء .

فالخبر : يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أي بغض النظر عن المخبر .

وهو باعتبار المخبر ثلاثة أقسام :

أ/ ما لا يحتمل إلا الصدق وحده وهو كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ب/ ما لا يحتمل إلا الكذب وحده كخبر مسيئمة الكذب أنه نبي .

⁵ / الإيمان - بن تيمية - تحقيق / محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة / أنس بن مالك - ١٤٠٠ هـ - ص ١٦٢
⁶ / الفتاوى - ج ٧ - ص ١٣٢

ج/ ما يحتمل الصدق والكذب جميعاً وذلك في سائر الأحوال .

والإنشاء هو : ما لا يمكن وصفه بالصدق ولا الكذب وهو الطلب .

والطلب ينقسم إلى قسمين : طلب فعل وطلب ترك ، فيشمل الأمر والنهي والاستفهام والنداء .

وهذا رد على الأشاعرة الذين جعلوا الكلام معنى واحداً قائماً بالذات ، بل هذه الأنواع تدل على أنها متغايرة ، وإنما تشترك بأنها كلاماً .

المبحث الخامس : أهم الأقوال في من المتكلم .

أهم الأقوال في من المتكلم ثلاثة :^٧

١ - أن المتكلم من فعل الكلام ، ولو كان منفصلاً عنه ، فعله في غيره وهذا قول المعتزلة والجهمية وهؤلاء يقولون : هو صفة فعل منفصل عن الموصوف لا صفة ذات ولذلك أنكروا صفة الكلام الثابتة لله وقالوا إن كلام الله مخلوق .

٢ - أن المتكلم هو من قام به الكلام ولو لم يكن بفعله ولا هو بمشيئته وقدرته وهذا قول الكلابية والأشعرية والسلمية فهؤلاء يقولون : هو صفة ذات لازمة للموصوف لا تتعلق بمشيئته وقدرته ولذلك قالوا في كلام الله إنه المعنى النفسي القائم بالله ، وإن الله لا يتكلم إذا شاء متى شاء ، بل كلامه أزي قائم به كحياته وعلمه .

٣ - أن المتكلم من جمع الوصفين فقام به الكلام وقدر عليه فهو من تكلم بفعله ومشيئته وقدرته وقام به الكلام وهذا قول السلف وأكثر أهل الحديث وطوائف من المرجئة والكرامية وغيرهم فهؤلاء يقولون : هو صفة ذات وصفة فعل وهو قائم بالمتكلم متعلق بمشيئته وقدرته وهذا مطابق لمذهب السلف في كلام الله .
والخلاف في هاتين المسألتين : (الكلام) و (المتكلم) يوضح كيف وقع الخلاف في المسألة الأصل (مسألة كلام الله) التي وقع فيها خلاف عريض بين الطوائف .

المبحث السادس : مذاهب الناس إجمالاً في صفة الكلام .

قال شارح الطحاوية :^٨

وقد اختلفت الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدها : أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني ، إما من العقل الفعال عند بعضهم ، أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها : أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخير والاستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره .

⁷ / موقف ابن تيمية من الأشاعرة - عبدالرحمن المحمود - الجزء الثالث - مكتبة الرشد الرياض - الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ - ص ١٢٥٥
⁸ / شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - أبي العز الحنفي - تحقيق أحمد شاكر - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ١٤١٨ هـ - ص ١٢٨ والفتاوى م ١٢ - ص ١٦٢

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث .

وخامسها : أنه حروف وأصوات ، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً وهذا قول الكرامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته وهذا قول صاحب المعبر ويميل إليه الرازي في المطالب العالية .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

المبحث السابع : بيان مذهب المعتزلة تفصيلاً .

يعتبر القاضي عبد الجبار من شيوخ المعتزلة والتأمل في كتابه^٩ يجد أنه يقول بأن القرآن مخلوق مبنياً في ذلك مذهب المعتزلة حيث قال :

فإن قيل: أفنقولون قد أنعم الله علينا بأن كلفنا وأمرنا ونهانا وأن الكلام فعله ؟

قيل له : نعم لأن الله عز وجل خلق العباد ثم أمرهم ونهاهم وكلفهم كما خلقهم ثم أحسن إليهم فكما أن الإحسان محدث فكذلك كلامه محدث .

وقد قال عز وجل (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ) الأنبياء ٢ . والذكر هو القرآن لقوله تعالى (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) الأنبياء ٥٠ . وقوله (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) يس ٦٩ . وقال عز وجل :

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) الأحزاب ٣٧ . والأمر هو القرآن وقال الله تعالى (نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) الزمر ٢٣ . والحديث لا يكون إلا محدثاً وقال تعالى (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ) . وهذه علامة المحدث

وقال (وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) الأحقاف ١٢ . وقبله غيره لا يكون إلا محدثاً .

على أن القرآن سورة كثيرة وهو عربي وينصف ويتلى ويستمع . و لاخلاف بين الأمة أن كل ما سوى الله فهو محدث .

فيجب أن يكون القرآن كلام الله محدثاً ومحدثه الله عز وجل ، فإن أحداً غيره لا يقدر على مثله كما قال عز وجل (قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) الإسراء ٨٨ .

وذكر ابن قيم الجوزية في كتابه^{١٠} نقلاً عن كتاب المقالات للأشعري اختلاق المعتزلة في كلام الله فقال : قال الأشعري : اختلفت المعتزلة في كلام الله : هل هو جسم أو ليس بجسم وفي خلقه على ستة أقاويل :

^٩ / القاضي عبد الجبار / الأصول الخمسة - تحقيق / فيصل بدير عون - جامعة الكويت - الطعة الأولى - ١٩٩٨م - ص ٨٦
^{١٠} / مختصر الصواعق المرسل على الجهمية والمعتلة / ابن قيم الجوزية - الجزء الثاني - البحوث العلمية والإفتاء - ص ٢٨٨

(فالفرقة الأولى) منهم يزعمون أن كلام الله جسم وأنه مخلوق وأنه لاشيء إلا جسم .

(والفرقة الثانية) زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة وأن كلام الخالق

جسم وأن ذلك الجسم صوت متقطع مؤلف مسموع وهو فعل الله وخلقه . وهذا قول أبي الهذيل وأصحابه .

(والفرقة الثالثة) تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد إذا تلاه تال

فهو يوجد مع تلاوته وإذا كتبه وجد مع كتابته وإذا حفظه وجد مع حفظه وهو يوجد في الأماكن بالتلاوة

والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال .

(والفرقة الرابعة) يزعمون أن كلام الله عزوجل عرض وأنه مخلوق وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد

وزعموا أن المكان الذي خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده في غيره . وهذا قول جعفر بن حرب

وأكثر البغداديين .

(والفرقة الخامسة) أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض والأعراض عنهم قسمان : قسم منهما يفعلنه

الأحياء وقسم منهما يفعلنه الأموات ومحال أن يكون الله فعله في الحقيقة لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلاً لله

وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذي يسمع منه، إذ سمع من الشجرة فهو فعل لها حيث سمع فهو فعل المحل الذي

حل فيه .

(والفرقة السادسة) يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد وهذا قول

الاسكافي .

والتأمل في الأقوال السابقة يجد أنها اتفقت على القول بأن كلام الله مخلوق .

المبحث الثامن : شبهات المعتزلة التي يحتجون بها والرد عليهم .

للمعتزلة ومن وافقهم في بدعتهم شبهات تعلقوا بها فمن هذه الشبه :

الشبهة الأولى : زعمهم أنه يلزم من إثبات صفة الكلام لله تعالى التشبيه والتجسيم - وهذا يقولونه في سائر

الصفات التي ينفونها - .

الرد : إن الله تعالى يتكلم بكلام يليق بجلاله ولا يشبه كلامه خلقه كما أخبرنا عن نفسه بقوله (ليس كمثله

شيء وهو السميع البصير) ويرد عليهم بأن القول في الصفات كالقول في الذات ، فإن الله ليس كمثله شيء لا

في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات ، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا

تماثل صفات سائر الذوات فيقال هؤلاء : إذا كنتم تقولون بأن لله ذاتاً حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة

لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف

بصفات الكمال التي لا يشابه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم وبذلك تنفى شبهتهم

ويظهر زيفها وقد قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) يس ٦٥ فنحن نؤمن بأنها تتكلم ولا نعلم كيفية تكلمها فإذا كان هذا في مخلوق فكيف بالخالق جل وعلا؟!^{١١}.

الشبهة الثانية : استدلالهم بقوله تعالى (الله خالق كل شيء) الرعد ١٦ ، والقرآن شيء فيدخل في عموم ما خلق الله من الأشياء ! .

الرد : هذا الاحتجاج واضح الفساد فعموم صيغة (كل) ونحوها من صيغ العموم في كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن .

والمعنى في الآية : الله خالق كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله تعالى فهو مخلوق ولا يدخل في هذا الخالق سبحانه وتعالى والله سبحانه هو الموصوف بصفات الكمال وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه .

ومما يوضح ذلك قوله تعالى (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) الأحقاف ٢٥ ، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ، فالمراد واضح وهو أن الريح تدمر كل شيء يقبل التدمير بما عادة وما يستحق التدمير وهكذا قوله إخباراً عن بلقيس (وأوتيت من كل شيء) النمل ٢٣ ، أي من كل شيء يحتاج إليه الملوك .^{١٢}

الشبهة الثالثة : استدلالهم بقوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف ٣ .

الرد : قال شارح الطحاوية : ما أفسده من استدلال ! فإن (جعل) إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق ، قال تعالى (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) النحل ٩١ وقال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضةً لإيمانكم) القرة ٢٢٤ وقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) الزخرف ١٩ ، ونظائره كثيرة . فكذا قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) .

فيكون معنى قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) بمعنى : صيرناه وبيناه ونحوه .

قال شيخ الإسلام : (جعلناه قرآناً عربياً) أي صيرناه عربياً لأنه قد كان قادراً على أن يتزله عجمياً ، فلما أنزله عربياً كان قد جعله عربياً دون عجمي . وهذه المسألة من أصول الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم .^{١٣}

^{١١} / خلق أفعال العباد - البخاري - تحقيق / فهد ن سليمان الفهيد - الجزء الأول - دار أطلس الخضراء - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ - ص ٢١٤

^{١٢} / المصدر السابق - ص ٢١٦

^{١٣} / الفتاوى / المجلد ١٢ / ص ٥٢٢

المراجع :

- ١ - لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور - - دارصادر - بيروت - الطبعة الأولى .
- ٢ - مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازي - تحقيق _ محمود خاطر - مكتبة لبنان - بيروت .
- ٣ - الإيمان - بن تيمية - تحقيق / محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة / أنس بن مالك - ١٤٠٠هـ .
- ٤ - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - أبي العز الحنفي - تحقيق أحمد شاکر - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ١٤١٨هـ .
- ٥ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة - عبد الرحمن المحمود - مكتبة الرشد الرياض - الطبعة الثانية ١٤١٦هـ -
- ٦ - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة / بن قيم الجوزية - البحوث العلمية والإفتاء .
- ٧ - خلق أفعال العباد - البخاري - تحقيق / فهد بن سليمان الفهيد - دار أطلس الخضراء - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٢٥هـ -
- ٨ - معجم مقاييس اللغة / ابن فارس .
- ٩ - الأصول الخمسة / القاضي عبد الجبار - تحقيق / فيصل بدير عون - جامعة الكويت - الطبعة الأولى - ١٩٩٨ م .
- ١٠ - الفتاوى / بن تيمية - دار عالم الكتب - الرياض - ١٤١٢هـ - .